منتورة
للنشر
الإليكتروني

الزمن قارورة

قصص

رولا حسينات

نوع العمل: مجموعة قصصية

اسم العمل: قارورة الزمن

اسم المؤلف: رولا حسينات

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى أغسطس ٢٠١٥

تصميم الغلاف: مروان محمد

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura٢٠١١.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura٢٠١١@gmail.com

مجموعة قصصية

قارورة الزمن

رولا حسينات

الفهرس:

١- أبو حجلة الوراق

٢- المستبصرة

٣- سجايا متمردة هائمة بين أمواج البحر

٤- قارورة الزمن

أبو حجلة الورّاق

في ذاته المكان المظلم بوحشته كان واقفا، وقد أشرف على الانتهاء من مراسم الحفر، لدفن سيده.

أخذ يرتشف بكم قميصه الذي ملّ الطيات حبات العرق، التي أخذت تتراشق دَفِقَةً من جسده وفي الراحة وقت وضع اليدين مناصفة على الفأس.

جميعهم كانوا بحماسية المشهد يرقبونه، حتى ملّوا طواعية انتظار الدقائق، وهم يرمقون السيد في تابوته خلسة، يستفيقون من وحي الذكريات بصعقة كهربائية تسري في أجسادهم، كثير منهم تعمد السير جيئة وذهابا، يرقب غفلة القوم ليلكز التابوت عن اليمين وتارة عن الشمال.

جميعهم اتفقوا بصمت وقد تعولقوا في صميمهم بآهات الخلاص.

أخيرا سحب جميع أوراقه، ووثق بموته نهاية أزمان سيقوا فيها لمقصلة جرائمهم، معتقل فوضوية منالهم، غناهم وفقرهم بآن واحد له سواء.

تعذيب النعمة بالنقمة، إقراضهم لمسته السحرية في مسح البصمات عن المعبودات.

لكنه كان على الرغم من ضعفه أجيرا وراقا تحت نعل السيد من تلابيب الآباء للأبناء، كان أكثره م ولعا وشغفا في أن يؤول إليه ارثه، إرث السيد للمسود" لأبي حجلة."

ليته يوصف يوما بالورّاق، ليتها تُعبد أنامله كما كانت تعبد أنامل السيد، ليحبو عدوا نحو القمة يصبو سعادة ملؤها أُنس وحبور.

ليتها في لحظة بل في ثواني كلمح البصر، تجثو الغاشية على أبصارهم سراعا، ليلظم خيط في مسلته التي أضناه البحث عنها في كومة القش.

لقد ابتاع في صمته جميع مخطوطات السيد وقت سيادته أرض الإنس والجان، لقد سرق عنوة همس الكلمات.

لكنها تراتيل بلا مفتاح، تأوه بصمته:" من أين له بالمفتاح؟؟"

أنهى بأسف شِقوةَ سنينه، ليُمضي وثيقةً أخرى تُضنيه حتى الممات، بقفزة واحدة كان فوق.

من تحت التراب إلى وجهه، جعلوا يفسحون له الطريق، بعضهم استند من تمطيه في جلسته والآخر اكتفى بنفض غبار بدلته، جميعهم اشتركوا بذاته اللون، أسود حالك وربطة عنق مقلمة بالعرض أسود وأبيض، كمصفوفات من حجارة الشطرنج.

جميعهم تمرسوا نفس القيافة ونمط تهذيب الشارب، وتجليس طيّة الشعر، أخذ يدفع التابوت مارا بهم جميعا، جميعهم حينها راعتهم مشيته، وكأنهم راووه السيد حاضرا، فجأة مارا أمامهم يقلبهم في مضاجعهم، وقت خلوتهم في أحضان معشوقاتهم، بل في أحضان دنياهم المعسولة المنقشة بالذهب، لا يرضون عنه بدلا.

هم وقفوا وقد تراصت أجسادهم يمشون الهوينى، تابعين الموكب الهزيل، ما التصقوا به وقت دَفعِهِ التابوتَ، بل تركوا صفا أو صفّين خاليين.

لكنهم جميعا أكدوا وجود الآخرين أمامهم، لقد تقاسمت تقاسيم وجوههم وتراص أعينهم حينا وانفراجها بوجل حينا آخر، شهادة الكثير منهم على ارتطام حذاء أو ذراع أو طرف إصبع منهم جسد آخر إمامهم، لذا تبينوا أن لا مفر من جعل أيديهم متشابكة مع بعضها البعض.

لكم أوسعوا بعضهم شتما ولطما وصياحا بل نعيق البوم في لقاءاتهم!، بل عند رمقهم أذناب بعض.

ما كانوا يطيقون النظر في سحنة بعضهم، لكنهم في هذه اللحظة رغما عنهم يفعلون، بل وأكثر من ذلك، ما عساها سوى ساعة من نهار وتنطوي تراجيديا استنساخه م لصوصا، موّسعٌ مدى انتشارهم على خارطة المكان.

لكنه كان على عكسهم أزيد عليهم بمثقال، رغبة في بقاء السيد ولو لليلة ليعرف كلمة السر ليجيش جيوش الإنس منهم والجان.

أما استطاع أن يمد في عمره ليلة، ليلة واحدة فقط؟؟

أم تراه ما استطاع إدراك ميعاد موته؟؟

لعله ما ظن أن يموت!!

أو تراه قد اغفل عن تدوين ثوانيه الأخيرة في دفاتر الحسابات؟؟!

لعلها تاهت بين الأصفار والأرقام.

أكبر جشع قذر على البسيطة، هاهو ربيبه الورّاق يدفع به إلى مثواه الأخير جعل جزءًا بسيطا منه ليدلي بطرفه إلى الحفرة، فقد اقتسم مع نفسه جميع الأدوار معلنا رده لجميل سيده، دافنه بين رزم الأوراق والمخطوطات.

يدفن رأسه بين أغبرة المكان التي ما مسحت من سنين، لعلها تلازمت وإياه لإضفاء نوع من الترويع في نفوس الزبائن، من مرتدي البدلات السود.

حفرة تلك التي حفرها وأنزلق فيها، وكأنما نزل واقفا، أخذ حينها يسحب التابوت بأنامله المتخشبة، بات فوق رأسه وكأنما كتب عليه من سالف الأوان أن يبقى السيد هو مدليا رجليه على كتفيه هو العبد.

بدأ بتقويس ركبتيه مفرجا بينهما، أخذ بصمت يكيل اللعنات على شحم ذلك السيد الذي أثقل وإياه التابوت.

لكنه فطن لثقله ولذا أخلص في غشه ليكون رقيقا، لا يحتمل أكثر من حملة واحدة، يثقل الكثير مما جناه حلالا في جيبه.

أخيرا جثا واجثى التابوت أمامه من صغر حجم المكان، كان بينهم الفراغ مشبع برطوبة الأرض، التي ما كان ليدوسها الورّاق، هكذا دون بساط أحمر، والغانيات يتبرجن حوله راقصات عن اليمين واليسار، دون أن يمشي مختالا قدما أو اثنتين ليُحمل في الهواء دون البساط ولا جني المصباح.

ويبقى يطير وتبقى الإبصار تطير معه، لكنهم لن يستطيعوا تنفس الصعداء إلا بعد التيقن من دفنه، وكيّل التراب ليمحو اسمه من على وجه البسيطة.

جلس القرفصاء ريثما يلتقط الأنفاس، لقد أعجزه عظمه عن حمل الشحم، اخذ يمسح بطرف كمه الذي غدا اقرب للسواد منه لأي تصنيف لوني آخر، لقد هجرته لباقة الخوف، آخذا بكومة البصاق يستجمعها من كافة ثكنات أسنانه المتآكلة، لقد بصقها عن يمينه، وكأنه في تلك اللحظة غيّر كل معالم البسيطة ومخطوطات حفرت باطن اليد.

لقد استنطق من غير أن يدري كلمات من خاصة، كُتمت طيلة قرون من الزمان، لقد خالف بطرائقه كل ما انتهجته أي نفس سوية، بوضاعته ما خشي الموت، فقد ثملت نفسه رؤيته مع السيد مئات المرات، جرذا في عنق الزجاجة لا خارج جسده ليذوق نصوص الحرية ولا هو أسير عبودية يتم كافة فنون طقوسها.

فقط يتجرع الأنفاس لتبقى زمنا تتنصل بالتنقيط، تتضور من مرآها النفوس، لكنه اليوم ما أدرك ما أتمّ للتو فعله.

لقد استنطق كبير الجان من مقبرته في أقاصي قيعانها الأرض، الذي اخذ يجري منتقصا من مقاييسها سطحية الطبقات، وهو على حاله فاتحا التابوت، ليودع السيد ببصاقه الوداع الأخير.

لقد أخذ يتحسس جسده لعله يعثر على ضالته، التي التصقت بيد السيد عقودا من الزمان، كانت يمناه ما قد تصلبت قبضتها، جعل يكسر أصابعه واحدا تلو الواحد، ولو أنصت قليلا لسمع جهر النواح، تلقفتها منه يمينه الياقوتة الحمراء، ما غُسلّ ليُجرد من متاع دنياه، فقد طعن من غادرٍ مرتزق جيء به من حيث لا تُعلم له أرض ولا

سماء، ولا محيًّا أو ملامح معلومة للعيان، ندبٌ من هنا أو شرخ خنجر من هناك.

لقد ضُرج بدمه هكذا بنهاية لم يعلمها هو ولا أوراقه أو لعلها حفظت سهوا في غيره درج الملمات.

لقد ذاب ذاك القاتل وكأنه ما كان، وعُدَّ السيد بين الملأ شهيدا، علهم تنصلوا من غسله خشية تدنيس أيديهم بمخاط أو لعاب أو حتى دماء نجسات.

فهل يطمئن بعد هذا في مضجعه؟؟

أعينهم جامدة في مآقيها وكأنهم شخصوا وقتما تَفلَ بصاقه عن اليمين، أما أؤلئك من تقدمت صفوفهم، فقد فقعوا له ساجدين من غير علمه، كانوا ليمينه حاضرين.

لقد أدرك في نفسه أن نصوص السيد قد انتهت وأذن لغيره بحملها، ولعلهم قتلوه وقد هُيئ لهم قتله، فهاهو بين ظهرانيه القبر بلا حراك، موصدا بين جدرانه التابوت الخشبي، يذوب فيه وحيدا بلا متاع يستقي من قيحه حين يقوم.

همّ بإغلاق التابوت حين سرت في جسده قشعريرة، أهي قشعريرة الوداع الأخير أم الياقوتة التي كسر فيها أنامل السيد، ليلوذ بها سيدا بأطول مفرد هو صانعه.

لكنها لم تكن هذه أو تلك، حينما قام وقد أتم تفل ما استجمعه من بصاق، لكنها على التابوت هذه المرة، حينما انزلقت عيناه على انفراج في قاعه القبر، لقد تحطم التابوت ومزق السيد الشهيد إلى مُضغٍ متلاشيةٍ ضاربة برفاتها في أجزائه المكان.

لقد تمثّل كبير الجان أمامه ماردا بلا مصباح، وما لامست يداه واحدا في سالف الزمان، لقد رآه أمامه وجها لوجه، كما لو أنه في يوم ما تمناه.

كان ذلك في السنين الأولى، عندما عمل خادما للسيد الورّاق لقد أفاده نبش ذاكرته، وما اخطأ يوما ضرب الحواشي.

لقد تعقد لسانه وما عادت عيناه تنطبقان، لقد كان حينها لعبة يسيّرها الجان الأعظم، حيثما يشاء ضرب بيده الأرض من حيث جاء، ليتغير

الورّاق النحيل من رثه وجزعه، إلى أبي حجلة الورّاق على سن ورمح، معبودا في أرض قد تعددت فيها الآلهة.

رفعه بقوته ليعتلي القبر صعودا من غير عناء، بل على الأثير من غير بساط، حينها خرّ أولئك من شخصت أبصارهم عبيدا لوريث السيد سيدا لا ينازعه في ملك قد تقلده من غير عناء، في أصله إلى حين خلاصه من تلابيب الخطوط في باطن اليد.

لقد غدا اليوم أبا حجلة الورّاق أعلم أهل الأرض، وأكثرهم قدرة وجبروتا في خارطة الزمان. لقد تتلمذ على الانعتاق من مواريث وتقاليد رثة أصابته بالدوار، جُلُّ أيامه ولياليه على اللاشيء سوى أن يبقى محشورا بين الأرض والسماء.

لكنه الآن قد اعتق ليسود وليسيد ويميد معملا في الأرض، أزيد مما كان عليه السيد ما استنسخ صورة بل صورا لكل من مشى براحلتيه بسيطة المكان.

لكي لا يجعل على ما اقترفته يداه شهودا، بل تلكم يمينه يشير بها إلى حيث كان.

صناعا لما يشتهي ما ينبس بالحروف بل ما لأحد جنود الجان عليه من حسيب أو رقيب.

رجوع للفهرس

المستبصرة

مضت تتلمسُ خطاها المتقاربة، مرتجفة أوصالها دافعاً إياها، تطأ سبلاً سابلة ًمجردةً من غير سلاح، في الليل البهيم ادلهمت أنوارٌ متلصصة..

همس في أذنها مسورًا يديه حول قدها النحيلِ متأرجحةً على أغصان الغضب:" انتشي لذة دمائي.. حلوتي حرَّة متلويةً ترتوين من نجيعي"..

دغدغَ مسامعها بهفيف الكلمات، تأنت بالنسيان شاديةً في سكرةِ الأحلامِ لهنيهات، جعلت تبحثُ عنه بأصفاده.. ذاب والسراب في حلكة السرمد .

التفتت تتلمسهُ ريحهُ أنفاسه خمر عرقه المتصبب على خاصرتيها، تاه وأدراج السكون شاخصةً تنث بأناةٍ فزعها..

وحش خيالاتها أمنت بوجوده نهاية إطباقه على مسننات حياتها بقذارتها.

لمن تعتق روحها.. ؟؟

كم خريف مفندٍ تشتريه؟؟

لقد جعلها ترد التيهَ توثبها حفيف سكناته، عنت والحسيس مؤرجحةً بين الكِسف المتكسرةِ في الدهليز المظلم..

انسلت في طريق موتها فموصدةٌ أدراج العودة، ينزفُ بابُ أمنيات خبالها من قريب وبعيد تُسيّرُها ساقاها، تتضارب وهوة النسيان منزلقةً تنصت إلى حسيس خطاه..

لقد اردعها مشاقًا فؤادُها المتوجع، مشرِّعا لها حفائرَ قبرها في غسقِ الهزيعِ ماضيةً طوّافةً بوداعتها..

زُلف الأيام.. التقمه الحوت فما ارتجعه تحت شجر اليقطين أو يخزيها يوم تبُعثُ وما كبلَ يديها ؟؟

مآلها ..بُرّزَ وجلُها..صعيد الجرف.. من يكبكِ باليةً جسدا فاغرةً فاهك مُسوًا بك بين الفضاء البهيم ووحشة الأرض؟؟

أغوصها في نحيبها وشجنُ فجائع سدفات تأويلها ينهي غاية النهاية؟؟!

حينئذٍ تؤلبُ تقاطرَ استبصارها وقد وهنت عروش المستبصرين!!

في العتمةِ تسمرت والقدمين مكبلٌ فيه وحشُها ملاصقٌ بابَ فرارها.. عجزها..

أتوقها لغور أسبار قاتلها من ينازعها حينًا من ثواني موتها سكينة إليها مردُهاا؟؟؟

قبضت إليها كوت الباب..

أ قانصةٌ وحشها أم تراه قانصُها ؟؟

دقاتُ قلبها تدافعت وحسيسُ النور الكئيب متأرجحًا يطفحُ بضبابيةٍ تلطمت وسمكةٍ عالقةٍ بين الصخور..

تأججَ رمقُها يجترحُ حبائلَ التفوه بالغوثِ ومن يغيث؟؟

وهنت بتوجسها المرور.. مُفزِعُها البصيصُ ومفرها إلى الظلام.. دفعتها بوابةُ موتها متطايرةً في الضبابِ..

أ توخزُها شوكةٌ في غمراتِ خيالاتها لتوقظ سقوطها بالتحليق؟؟!!

صفعتها الريحُ تصفرُ بشجيّ الألحان، نائحةً بائسةً يُرجعُ الصدى بمثقلات الغشاوةِ هزيعُها الأخير..

ارتطمت بأنيابه عاف َبؤس ضحاياه، ضلوعَهم بانهزامية الهروب، انزلقت يسلخُها و أشلاءها المبتورة..

خرت صريعةً في جوفهِ وإن قلبت أناملها تند بالصيحات المكتومة.. وشهود الأجداث عرابيّ ميتتها الأخيرة يتثالبون يشحذون الأنياب صرعى في رحى معاركهم أمواج اللجيّ تتزأر بهديرها هالها الجزع فزعزعت من تحتها لتسقط في شقة الموت..

قامت فزعةً تتوثب من صنيع هواجسها، تلمست بقاياها المتساقطة، جعلت توصد قلبها عاجزةً أمام دقاتهِ المتناثرة.. قفزاته بعينه في أنفاسها، سيلُ عرقها المتساقطِ حمامَ قيامتها..

ألقت جسدها علها تلوذ بالصبر تهيم وإياه في الأرجاء وديناً وشعابًا، تترصدُ الخطى دون احتساب مزالق نواياهم مفرداتُ حساباتهم، وحوش أرضها ساكني الأرض الملعونةِ أم هم من لعنتهُم ولفظتهُم قبلَ آلاف السنين؟؟؟

أغمضت عينيها تاهت في دوامته تارةً أخرى خوّاءً بما هو ثرٌّ، واتتها الشجاعةُ وانقبض خانِقُها بين يديها، مزقت أزرار ردائها القرمزي، إنثالت قطراتُ دمائها تحت أظافرها، أنسجةُ جلدها المتمزق، تلمستها تنسابُ مهرولةً من صدرها..

أيقظها خوفها مهرولةً غير ما كانت بتسمرها في أضغاث أحلامها، فتحت صنبورَ الماء جعلَ يضجُ بدمائها، تأبى و كتمان زرافاتِ إنبجاسه، أثلجت سقوطهُ تقافزت أنقاضُ قلبها، وبات على الأطلالِ يُناظِرُها، خرّت من سقوطها المبتذل في حِمامها ..

أتستعر صرخةً عندَ مناظرتها تفاصيلَ وجهها المبهمةِ، منكفئةً بصفرتها ندوبٌ ازرقت واستحالت تميمةً وجهها..

ما درت وهي تركنُ إلى إنبعاث جوفها المنطفئ، متى كانت تتلاشى و الذُبالَ المنطفئ من فداحةِ رمادها، المتناثر في جميع سُبلِ حياتها..

لقد هجرها.. نعم، هجرها حبيبُها متعةَ الفراش وتقارب الأبدان، أودعها تطيبهُ لحبيبةٍ أخرى في مكانٍ ما جليسةَ قلبهِ..

أهو الحزنُ الذّي غلفَ وجهها أناءَ اللّيلِ وأطرافَ النهار؟؟

أطمخَ الربيعُ معاشرًا ميتتها ليفُجعها بفراقه، وهو يثلمُ بوجوده كُلَّ عبراتِها وسكناتِ؟؟

ها هو حزنٌ فيها يخرُّ له قلبُها، ما منعهُ إذ صارحتهُ بمستقبلهِ أن يتقبلها برفقهِ أم اقتدَّ قلبَهُ من الصخر؟؟

حينها أوجعهُ فزعهُ من نهايةِ شجرة لبلابه.. تسلقهُ أوراقَ لعبَهُ، راح يَهذي أيامًا وهي ترمِقُهُ ما استطاعت أن تهوّنَ عليه فشلهُ، ثم ابتدئ عهدُ إهماله لكيانها..

أيستعرُ بالخناجرِ نواصلاً لتشربَ من دمها الأزرق؟؟

" باردةً أنت، وردةٌ عُدِمَ ريحُها.."

هزها ما فتئ يهزُها ثم نثرها تتقيأ اللاشيء في جوفها، تمزقت أحشاؤها ونفثت عُباب صديدها زبدًا على حفافيه ثغرها، وهامت تعباً بفواجعهِ بينَ الفينةِ والأخرى وقد جعلها يدوسها بحجريها الرحى..

لكن ما كانت هذه البدايةَ فقد ابتدئ أمرُها، مذ كانت صغيرةً حين فارقت مرضعتَها ممسكةً حبلها السُّري حتى انقطع، وذابت أمها وحبات الثرى في كمها على الرغمِ من صغرها..

حملت حفنةً تذرفُ دموعها حين توحدها وهو ما استساغتهُ لها أيامها، ما ارتجت بضعفها مشاركتَهُ حب زوجتهِ ذات الشفاهِ الحمراء والعينين الكحيلتين، صبح مساء تلطخُ صفحةَ وجهها الضيقةِ، واشتهت السجنَ مهربًا من لسعات كيها في كُلِّ رمادِ جسدها، ما تخفيهِ مساحيقُ التجميل أعظم..

خثُرت كرةُ ذكرياتها، مشت بحفيف خطاها تشمم نسمات الهواء، بزوغُ الفجر يلامسُ عروسهُ في خدرها يُندي وجنتيها بقبلِهِ يُريقُ ماءهُ في طياتِ أسرارها الكوني..

ما اعتادت عبق أريجها الوردات، فقد اقتيدت إلى السرداب الخلفي، تحت المداس تسمع وُقع خطوات زوجته الأب، تؤملُ في الظلامِ إنارة الأساطير، تَصَيّدَ النجومَ، نيمةَ العصفورةِ وقتَ السحر، بكُلِّ أنةٍ يخفقُ الأنين والرقراق، سحابةً تسقي حفنةَ الثرى في قماشتها المخمليةِ، قد نقشت اسميهما معًا (منال ومنية)، ومما نيلُها مشتهىً بتمني وكلاهُما في المؤملِ تشتركان..

ومع كُلِّ ذرفةٍ تنبتُ ينعاً أخضرَ حتّى امتلأ الثرى فيه، ينيرُ السردابَ الخلفي سجنُها الأبدي قضت أسفارَ طفولتها في أحضان بهيميته،

أخذت تُنيرُ ما حولها، بما ليسَ من عُبابِ أطلاله تستبصرُ وريقاتِ خريفهم المتساقطة، صفحاتِهم المتلاشية السطور، جعلتها على مقربةٍ من قلبها وأخذت تُثيرُ جلبةَ الصمت في المكانِ، خدرها يئدُ الكون، يزمجرُ بعواصفهِ لتتوه الصرخات ليؤوي إليها هديرها، أمردًا بلا صدىً..

أخذت أدخنةُ نارها تزحف ُإلى سجنها الأزلي، ووهجُ النار يلسعُ خديها الوجلتين، تراجعت بخوفها تطوي جذوتَها في الينع، علها تبيحُ لها أسفارًا في الجنان، حيث أمها ما تفتأ تهمسُ في أسماع العصافيرِ قبلةَ اللقاء، لتبيتن في مخدع حنوها الدفين..

فاستحالت عتمتُها القسريّةِ إلى أنوارٍ وهدمِ الجدار، وارتفعت بها أرضها المجذوبةُ إلى غلالِ النور لتتنفس من حفلاتِ التعذيب.

سرابيلُ الحريةِ أقضت ساجنتها محترقةً، وما استطاعَ أحدٌ أن ينُاولها حبائلَ النجاةِ فقد تقطعت محترقةً قبلَ الولوج في اللهيب، لقد نهشها وأثوابها الخليعة، وأطفئَ كُحلَ عينيها وحمرةَ الشفتين..

أحاطها والدُها بذراعيهِ وضمها إلى صدرهِ لأول مرةٍ، بعد برهةٍ من الزمن تشمم ريحَ الأبوةِ لم تند لها دمعةٌ، فقد ذابت في الصمتِ الوجوم..

لقد أُنير المحرابُ أمامَ عينيها، فغدت عابدةً في محرابهِ بأثوابِ التجلةِ، ربيت خاليةً من الأحقادِ، تستبصرُ مواعيدَ نشوةِ الانتصار، بل وأذيالُ الهزيمةِ للكثيرين ممن يمرون أمامها منكفئين على وجوههم، يركنون إلى قياد العقل إلى التهلكة، ما تمضخت من شفتيها غيبياتُهم ومضت تُراودها رؤاهم وهي تتوارى بالحجاب..

إلى أن رأته سجانُها حبيبُها، دفقُ حبها أمامها، عابرا شطآنًا وقفاراً، مارًا بجانبها باردًا كالعليلِ، لقد هوى بفأسهِ ينثرُ عُشَ نُسكِها، ارتعدت صُعقت بغبرةِ استبصارها..

لكنها عشقتهُ من أول وهلةٍ، ارتعدَ قلبُها وارتجفت كُلُّ تفاصيلِ نوازعها متشبثةً فيه، على الرغم من اطلاعها على غيبياتِ مستقبلها، حبها العقيم وما أُخصب في نديِّ قيعانها..

كالمأخوذة تسمرت وهو يلامسُ جسدها بقوةٍ اندلعت جاذبةً إياهما معًا، توقفَ ونظرَ وأطال النظراتِ..

نبسَ:" معذرة لإبطائي"

همست:"ولو أنك تأخرت لعذلتُ بالحب للقياك" ..

ومن حينها راحت القطراتُ تنزُّ من سراج روحها، بنزرٍ ضئيلٍ يتيه مُتسربًا في قراحها يتأبى استبصارُها على النسيان؟؟

إلثوى نديفُ الثلج يُجَمِدُ صهيرَ حبها ..راعها ما رأتهُ من أمره.. خلانّهُ تشلخُ أشلاءهُ.. أخبرتهُ بجزعٍ، ما كان منهم وما مكروه من أجله، ومضى متنمرًا يسوقُ الحذر في مواضعهِ وقد أمنَّ نفسهُ وعملهُ.. أوراقهُ مشاريعهُ، كُلَّ توقعاتهِ لمرؤوسي ه، جعلوا يبدلونَ ويغيرونَ تكالبوا عليه كما الكلابُ إلى قصعتها، واثق الخطى مضى لا يندُ له طرفهُ، وعلى الطاولةِ جعلَ مواثيقَ أعماله، وفي لمح البرق رجعَ صدى نجاحاتهِ ولمع نجمهُ، وافلت نجومهم، وتقاطروا يزفون الخيبة، تصطكُ من الغيظِ أسنانُهم..

عاد يومها بأجمل شفيفِ الثيابِ يُغازلُها، واعتادت بعدئذٍ أسماعهُ على رؤاها، هيئ لها الأسباب، فقط تردُ ماء راحتها.. غدرانها ..تجدل ذؤابتها بأيدي النسائم ..وقد لف يديها بالحرير ..وجعل يعلو بعمله يموج وأمواجَ السماءِ، لا يهاب بردًا ولا قرًا، وأصكَ بمنكبيهِ منكبَ السماء وقد أوقدَ أتونَ النجاح والانتصار في سكراته، وأجراس طوارقهِ شغلتهُ عنها أيامًا تنازعها

شهور، بين الفينة والفينة يتندرُ بسؤالها، فما ظنّهُ أن تزولَ ممالكهُ أو يتضعضع عرشهُ..

" وما ظنُّك بالزعيم الروحي الجديد ذي العمامة السوداء؟؟

أجابت وهي تفترشُ فخذه بعد طول بُعاد:" ستأفلُ شئرازُ نيرانهِ ويُجَرُ مُسفرًا في الأسواق..."

"وما أدراك؟؟

" ..إني أراهُ وقد جُذبت منهُ اليدين بأصفادٍ يُجرُ، دماؤه تُرتوي منها الغربان .. "

"ومن يتلوه ..؟؟"

"قل من استحاله إلى ما آل أليه؟؟

".. ومن ..؟"

"أعزُّ تابعيه وأقربُهم.."

"ومن هو؟؟"

" ..إن دققّت النظرَ في عينيهِ تجدهُ وارقًا في الظلال."

"..ولماذا يفعل هذا؟"

" إنّهُ بخورُ الخيانةِ الذّي بدأت حاشيتُه ُثجاجةً تجأرُ في كُلِّ الشعاب .. "

"وما نهاية سفكهم للدماء ونهبهم للإعراض باسم الدين والرّب منهم بريء؟؟"

" .. يعودون إلى جحورهم بقعقعةٍ عظيمةٍ، بحشرجة المحتضرِ وتقطعُ كُلُّ جرائِرهم .."

"ومتى هذا الوعد..؟؟"

"عساه يكون قريبًا..إنّه وعد الله الحق .."

وغابَ يُشيعُ في الأنحاء ما كان مغترًا باستبصاره من مصدرٍ موثوق، ولمعَ برقُهُ وأُنيرت بصورتهِ صفحاتُ الجرائد..

هذا ما خشيتهُ منه وأوصته حيناً، بألا يُقدمَ على مجهولٍ..

ألم يُنبئ بما في الصحف الأولى؟؟

جعلَ يدُسُ لها التسجيلَ لحوادثَ وأزمات، وهي تمارسُ الجهالة بعلومهِ وفنون احتياله شعاباً مُلئت بالأشواكِ، مجرجرًا إياها فيها، لقد بدأت بالفتور، انكفأ لونها، بل وتقطعت حيازيمُ جأشها وبانت دوحتُها الفينانةُ قضباناً من فوقها قضبان، وما يُفثأ لوعتها انهزامهُ فهو عاجلاً أم أجلا سيفيضُ بحسرةٍ لا انقضاء لها إلا بالموت..

كتاب قضي ما فيه، راودها برداءِ حبه بزيف طبع القبلات، ثمناً بخساً لمراده..

" وماذا بعد 11 سبتمبر..؟" نطق بدهاء.

"ويلاتٌ وحروب..؟"

"وهل تُمكّنُ لهم القوة ..؟؟!"

"حتى حين ثم إلى قضاءهم يجوزون .. "

"ونهش الأرض والتفريطُ فيها وأمر العباد؟؟"

" فرقةٌ لا محال أن تشيعَ في الزرع والأكلِّ والمدافن ومواطئ الأسفار .."

"كلامُك مبهم؟!"

" .. ولما تُريدُ تبيانه..؟؟!"

"جليٌّ الأمر خيرٌ من مبهم الكلام..؟"

"أتعرف سمية ؟؟" باستطراد فاجأه..

وما كان هذا سؤالهُ، ردت خنجرهُ في قلبها إلى قلبه..تُقلب المواضع.. تلعثم وضاعت منه الحروف ..

أردفت:"ألا تعرفُها ؟؟

من طرزت اسمها معانقًا اسمك، مَن صورتُها في عينيك ..خصلاتُ شعرها النحاسي صدرها العاري وأهداب العينين ..!!"

بصوت متهدج نطق:"أنا لا أعرفُ عمّن تتحدثين ..؟؟"

"عن جلساتك معها وسهراتك، وحينًا تنسى أن تبرح عطرَ خدرِها أيامًا وليال..

هل أُفزعُك بما أرى وإنّي أراك و إياها..؟؟"

ضحكَ ضحكةً هستيريةً ..ومن بين أنيابه نطق مضغ الحروف:" أني أخافُك!! نعم، أخاف منك..كُلكِ..

لا أُطيقُ انتشاءَ ريقك.. فزعًا أتقلبُ في مضجعي، إنسانُ الحبِّ فيك ميتٌ من أزمان ..وما الذّي سيؤول إليه برجي العاجي؟؟

فهو يلاطم السحاب.. ومن يقهرني تفجيريين أم مندسين أم جبلة من الظلام..؟؟"

أجلستها صراحتُهُ شدوٌّ كلماته الشجيِّ، جعلت تترنمُ ما حاكتهُ لها اليانعاتُ في الحفنةِ من الثرى.. تتمايلُ بكُلِّ شغفِ جسدها..

وهو في تأجج ثورته.. أمسكها وهي تترنمُ..

"وما عساه يؤول إليه حالي؟ بعجرفة وتقزز بسط بسطة قيامته..

أنطقي بفجورك.. أرعدي أرضي.. قهقري جنوني.. "

من بين يديه انسلت مفترشةً البساط المخملي.." ستنهارُ.." نطقت

وتعودُ كما خُلقت وما لك من كرةٍ لثُهيلَ على نفسك التراب.. لا أرغاء لك ولا زبد.. ولا مناص لك، من فواجع الفضائح ونجعها.."

أنفتل يصيء كالفأر في المصيدة .."كاذبة فاجرة .."بصرختها زلزل كيان الصمت..

"حبيبتُك من ستشي بلصوصيتك وتلبسُك بيديها الأصفاد ..تاجرًا للأكباد غدوت واستشرت الرذيلةُ تلهب بها كنوزك..

إنها أتنك المشتعلة من تنفث أوارها .."

جعل ينتفض طاغيًا يهيلُ كُلَّ ما يعجزه، بكرهٍ وفره لهكذا ميعاد..

ترنمت بنطقها:" ما عاد لك ضخضاخ ماءٍ في الغدير.. أهو زفيف الريح ما يُغشي مسامعك ؟؟!

أم دمدمة الرعود ما تُكَفِنُ بها جلمود صمودك..؟؟!"

وأخذت تتمايلُ بترانيمها العتيقة ، أرسل شواظُ غضبهِ، استحالت مخالبهُ تنهشُ جسدها، تفر من الموت إليه..

هام على وجهه، وخرج ببصيرة أيامه، وهي تترنمُ بماءِ دماءها بحراً مسجراً سابحة فيه عبرت زاحفةً تنبشُ عن حفنة الثرى والينع الأخضر، فوجدتُه ذاويًا مصفرًا، جنتُها خاويةٌ على عروشها، ذرفت قطرةً دمها تنوءُ بملجئها الأخير، انبجست الأرضُ عن جرفٍ صخريٍّ يغشاهُ الموجُ من فوقه سحاب..

زحفت إليه استرسلت بساقيها يسوقها عزف الرياح، كفنُها من زغبِ البحر، حضرتُه صخورهُ السود، تُكّشِّرُ عن الأنياب، أخذت أمواجه تتصارعُ وأصنام صخوره وأنصال أنيابهم فتجزها لتقع تعوي إلى الفراغ..

وهي واقفةً مشرعةً جسدها لعصف المزمجرات، ودُّها لذة وشهوة.. رقة أنصاله.. آبقة من شرورهم.. آوية ببصيرتها إليه، تبث بنات قلبها تشتهي نيمتها على فخذيه الموت، ضناً بذكراها أن تزول، عرابثُها الشمس وهي تأوي إلى خدرها، ماء الحسن يجولُ في أديم جنون أمواجه أغمضت عينيها علها تستبصرُ فيافي جنانها، تلوت الأنصالُ تُسيُّلُ اللعابَ شهوةً تلقفها وسُمِعَ حينها هديرٌ جلجلَ سدفاتِ

السماء، بأولى آيات تفويضهم لله .. وجُمدت في محرابها في جوف الموت تتبتل بأسرارها عنان السماء..

النهاية

رجوع للفهرس

سجايا متمردة هائمة بين أمواج البحر

التفت بغشاوةٍ غطت أجفانها، وقع خطاهم يقلبون مضاجع قومها ينهبون عُريهم... جوعهم أمنهم، ويمضون تلفهم سحابةٌ من غدرٍ سقيم.

جعلت جسدها ضآلة فزعها تُناظر جرجرةَ الآذى تُلاطم المراكبَ في غياهب البحر، جمدت في محرابها تُلهبُ وجهها حُرقةُ شمس صحرائها، بنتُ الصحراءِ تجرُ فزعها في كُلِّ غصةِ فجرٍ غائمةٍ في غصيبِ لهيبها، عُريٍّ قدميها ولسعات رمالها الذّهبيةِ، تتدثرُ بالكثبانِ تلمسُ من بين يدي الريح إملاساتها تستقي من عثراتٍ هائمة.

رشفةُ الماء متضلعةً بحسراتها، زفرات تشق سكون هيجان العراء، خيامُهم تُمزقها رماح الغاصب صُبح مساء، تُنتهكُ عذريةُ العاكفات في خدرهن.

تراشقت وأمواج البحر تُرسل آمالها إلى البعيد حيث عروس الحرية، مكدودةً لملمت أشلائها.. غطاء جسدها.. أستار بقاءها .. طوافةً بين أجنحة الموت.

جعلت تتلصصُ سمكةً فارةً من القيعان العائمة، أخذ جبينها يرفضُ عرقًا سابحةً في سيلها العرم، الرغبةُ في الفرار حيث تَغِلُّ لُقمةً تستسيغُها دون نكدِ الحياةِ إعانة المسترمد.

رمقها من بعيدٍ ومن بين أسنانه سيجار عالق بصفراوية نتانته، ينفث ريح كيره تعبق في النسيم المثقل الهبات، أبصرها حين أشاعت الريحُ العاصفُ تدثُرَها، انحسار غطائها تبينُ الخصلات الحمراء، وفي جيدها نيطت قلادةً، لسعت مطامعهُ حمولةَ قارب الموتى، بيده أشار لها أذنًا بالاقتراب.

متباطئةً تقدمت الخطى، دقاتُ قلبها المرتجفة تجزُ هضيم الأيام، انكمشت جسداً ضئيلاً في قارب النجاة، وقد انسلت قلادتُها وديعة عصورٍ غابت في عاديات الدّهر، وحلت جرائرُ مطيتها الوعرة تسوقُها الأمواجُ بين الأجساد.

اندست تحت النعال من بين فُرَجَها المتلاصقةِ، بصيص نور هائمٌ في سرمدية سماء ما عُرفت من بينها أمواج البحر.

جاوزت الفضا في سويدائه ظبيةٌ هاربةٌ من ضيم لهيب الصحراء، لا غلبة لأحلامها في عرض البحر، أخذت تسقيها أمواجه المتصارعة على قصعة الجثث.. نعيق البوم يُداعب اصتكاك أسنانها..

تتراقص من فيض الماء، بتعبها لاغبةً غفت محفوفة بحاشية الموت، أنست لصرصرة غوائل العاتيات، تنوء عن حلمها غُثائة الغيوم الظمآنة لالتهام لوعتهم.

بقيت منحسرةً تتجاذب أطرافها نوازعُ الموت والحياة، يطلُ بصيصُ النور بذبوله في ذات الوهلة تقطعت حيازيمُها وجئيرهم، سجدت أدعيتُهم ملاصقةً منكبيها صفحة السماء، طافت مدامِعُهم وملوحة الآذى.

بين يدي الموت يائسةً أجسادُهم وقد غيضت أرواحُهُم من فواجع الحياة للفظةِ الإعدام أجداثُهم قد حُفرت وسُقيت تُرَبُها في هيجان ألسنته الموت.

تبعثرت ابتهالاتُهم مع صخبِ عرسِ صحبتهم إلى دار السلام، عجزَ الكرى حينذاك والرماح نواصلٌ أن يلملمَ أجفانها.. بعويلها ترتجي شواظ اللافحة لسمرتها.. راقصةً على الرمال الملتهبة.

بدأ النزرُ الأخير من أشعة السرمد الكامدة، تتخللُ بفضولٍ أردية كفنهم، وغدا البحر بعد صخبه وأمواجه الغانيات على أسفارهم، وعبابه اللاغب على حفافيه جسدها ناسكًا في محرابه.

اختفى كُلُّ شيء الأجساد..الآمال المرتقبة ... الرغيف الأسمر ورشفة من عذب الرقراق. كُله ذابَ في فسحة النورِ وانطوت دفاترهم في الخيط الفاصل بين الحياة والموت، ومضت تتعلق بقشتها تمررها أمواجه العاتية بين أسافين السراب.

كما كانت تراهُ سراب الصحراء باحثة عن رشفة الماء هاهي تحتضنها الامواه وقد كانت يومًا ساعيةً في طلبها.

وغابت في السرمد أيامًا طوال تناقلت حينها أنباء بين ساكني البحر وحُراسه "مأدبة الفقراء الجياع في مقابر المنسيين".

عند الشاطئ الجنوبي جلس الرسام انجوليان ينقشُ بريشته أمواج البحر المتراقصة، حاملة في جعبتها صور الآلام، مخاض الأفراح.

تتجاذب فيما بينها تارة وتتنافر أخرى وهو يزاوج الألوان، ومن بين الغيوم أرسل شعاع الشمس نورًا متلألئً يسرق من السكون أجمل آياته، افترَ عن ناجذيه بابتسامةٍ تُعيدُ النبضَ لقلبٍ طريح.

أخذ يختلسُ جمالية المكان.. تلاصق البحر وصفحة السماء.. اختلاط الأضواء الركام على الشطان، ألهمتهُ الكومةُ الممدة على الشاطئ، تناسقُ الألوان.. الأحمر ينسابُ مُطارحًا السّواد كأنما الشفقُ يداعبُ ستار الليل.

أحدّ النظر في التفاصيل، حورية البحر ثملى يطارحها غرام الخلجان، استفزته ذكريات الحورية والأمير وحكايا الغانيات يتراقصن فوق قلوب المحبين، ألقى بريشته فسقطت ملطخة الرصيف بذات صيغة الألوان.

نهبت قدماهُ الريحَ وسكنتها تلوّحُ ردائهُ الجلدي الأسود، تبعثُره في برودة الأمنيات.. فارق الرصيف والصورة الخلفية، نزلَ الأدراج الست وثبَ قلبهُ من بين جنباتهِ محاولاً تقمص دور البطولةِ.

عاشقاً أتراه من قبل أن يُزفَّ لحورية البحر؟؟!

إجثتها التّي ما استساغ البحر تذوقها.. طعمُها اللاذع.. التصقت الرمالُ المُعشقةُ بالمياه بقدميه.

متثاقلاً وصل وروحه تسابقهُ إلى، هناك وصل أبعادا غير أبعاد مؤمله، سقطَ عندها جثة رفع الخصلات الحمراء عن وجهها.

وجهها ولفحة الصحراء.. زرقة الخدين.. تلمّسَ نبضها.. خفق قلبه قبل سماع حسيس نبضاتها.. رفعها بساعديه..و فوق ذراعيه حوريةُ البحر الغائبة..

وقعَ غريم غرامها.. استهوته الخالة عند ثغرها فطبع قبلة.. لعله يوقظها من كيد الساحر ولا يفلح حيث أتى..

برقةٍ فتحت غشاوةٌ عينيها.. فيهما رأته كائنًا كما ألفته من ملائكةِ أطلقوها من الموت لتوهم بريق قلادتهُ من شق ذاكرتها بصمت، وأغمضت نبضاتها لتُشعلها أخرى بقوى.

في غرفة العناية الحثيثة جعلت أيدي الأطباء تتسابق لإيقاد أنفاسها المرهقة، عضلة قلبها المتجمدة..

وهو من وراءِ الزجاج يود لو يعطيها قسطًا من حُبهِ ليروي ظماءها انسيابية روحها، لقد عشقها من أول جثوة له عند روحها.. نتوءَ صدرها ما خفق في قلبهِ أنوثتها الناعسة..

في صمت الجفون ذاب فيها قهوة في مزيج الحليب والسكر.. فأيٍّ منها هي إنها كُلُّها جميعها معًا.. لم ينسى طعمَ القبلةِ التّي طبعَها على ثغرها الوردي وقد أخفت الزرقةُ منه الرقة والعذوبة..

ومضى يحلم وإياها يتراقصان فوقَ أمواج الألوان.. ملثم في حبها كما زهت آخر ألوانه وقُدِّرَ لها النجاة وتداركتها بوابةُ النجاح بين ألوانه.. ومداعبتهُ للقسمات، جعلها في خدرها فواحةً يستلذُ بتقبيلها وقت الصحوة ودلوك الليل..

أجفانه التّي تعلقت بحمرتها التّي لوحتها حواشي الصحراء والندى يغفو على خديها في المرسم..

جعلها شقيةً تتلاعبُ على نغمات قيثارةِ أحلامه.. صخب واقعه.. تتراقصُ بفطرتها دون أكاذيب وزيف مدنيته..

شاع صيتُها في فلورنسا.. فغدت محجًا للمغرمين ومعقلاً لسواقي العاشقين، جعلها ولوحتها نظرها تمدُ يدها من بين جدرانٍ ورقيةٍ..

لتُخرج بماءٍ دافق جمالية الخريف، شاخصةً للعيان وبين يديهِ صورتها..يرسمها بأحاسيسه حبه.. عشقه لها، طوّحت رأسها في الهواء لتثملَ كتفها العاري، وقد انشق عن فتيلِ من صدرها تقاسيم عنقها الممشوق، شعرها الأحمر يتهدلُ مغازلاً قلبهُ.

لكنّهُ ما كان وحدهُ من غازلتهُ فطرتُها بساطتُها ..هيمان روحها.. عتقها من سراب الصخب كان ماثلاً بأمواله من بين الصفوف.. يقبلُها يحضنُها في تجاويف نفسه.. المنكسرة تحت وطأة أمواج نقوده..

قيدها في قلبه.. في ملكيته.. لحظة رآها.. لعلها تضيف لمتاعهِ الغارق في عتمته صباها وألوانها..

تقدم الصفوف وقد انشقت برنين خطوته.. عيناهُ معلقتان بصورتها والأصل.. ألقى بالمال عند قدميها.. آلاف من الأوراق النقدية ثمنا لها، ورسمها في سوق النخاسةِ المليء بالألوان..

مدَّ يده فتلاصقت من غير إرادة منها.. بيدها لفها.. بذراعه ومضى وإياها..

وانجوليان حبيبها يرمقها.. هجرته بواقعةِ فجورٍ أمام عينيه، وهو يرسم رسمها من بين طياتِ قلبه التّي حفظها..

لكنّها ما نظرت إلى الوراء كما عبرت الشاطئ أول مرة، ما نظرت لخيمتها حيث ربضت أجسادٌ تعنيها..

فارقتهم ساعيةً وراء حفنةِ ماءٍ.. تحرقها لسعات السراب.. دون أن تجدها ما حفلت بوهن منعتها الخيام.. وقد جردت في كُلّ ساعةٍ حريتَها أمام قوافل السيوف والقتل والتشريد..

لكنهم مع هذا ظلوا ينتظرون حفنةَ الماء لتسقيهم منها سجايا..

لكنّها بعنفوانها تمردت باحثةً عن حفنة ماءٍ لا تحرق جسدها، لقد ألفت ملامسة الأجساد والتصاقها ببحر من القبل وخدر مسموم هي

ساكنته.. بائعةً لجمالها.. فطرتها.. ريقها من لبن الصحراء وسواقي بساطة رماله الذهبية..

لقد تركت لوحتها ناقصةً.. جعلها انجوليان معلقةً على جدارية رمادية مهشمة.. تراود هشاشة قلبه..

الرمح النازف المعلق في قلبه.. ما استطاع نزعهُ ولا رشقهُ بألوانه، مضت هي آنية في رقصات القصر المنيف..

يشف عن جسدها كُلُّ مفاتنه بإشراقة شمس ونعستها..

وقد تمردت على كُلِّ أستارٍ قد أحاطت نفسها فيها، سُقيت بلبنِ الحريةِ وإن عُذِبت.. فطمت على حفظ الشرف فيها..

لمّا كان هروبها من أن تُنتهب كمتاع.. من أن تُسرقَ حريتها ومداعبة الرمال الذهبية..

من أن تُزفَّ لمارقٍ ما اطلع على تجاويف رغبتها.. أنوثتها الطاغية..

لكنها سلّمت بكُلِّ مقاليدٍ كانت تُثقلُ كاهلها.. ومضت تسقيها سواقٍ من مياهٍ آسنةٍ غربلت كُلَّ مفردةٍ فيها..

وإن تجردت عن عشيقها انجوليان.. من دبَّ الحياة فيها وشاءت الأقدارُ أن يبعثها من جديد لكنّها هجرتهُ لاهثةً وراء أخر وأخر..

يقتاتون بجسدها الغض وجمالها..عُريِّها ويتمُّ فطرتها.. سجيتُها المتمردة..

ومضى هو باحثًا عن حوريةٍ أخرى ممدةً على رمالِ الشاطئ ليدفنها.. ليغطي فطرتها برمالٍ تغسلها الامواه المتمردة ..من جبروت أمواج البحر.

رجوع للفهرس

قارورة الزمن

"ها أنا أنكمش جسدا ضئيلا في مهب الريح، لا شظايا الثرى تهشمني ولا أقنعة منهم توصد طرقاتي، لكني أقعيت ضمخة بنوازع مني قد بترت، أرمق الأفق بغشاوة قد أضحت سبيل رؤياي، على سفينة الغرقى دسست جسدي وبه نفخة من الآلام، وأوصالي مرتجفة تحت معطفي البرتقالي ذي الكم الأخضر.

ووجهي صفيقا تذروه لسعات البرد المعشقة برذاذ الماء، لاهية على صفحته وأنا مغمضة العينين، شعري الأحمر مندس تحت قبعتي الصوفية ذات الألوان السبع، متراقصة أناملي بكفين قد قطعت أطرافهما، فغدت يداي حاملة أسفارا من شتات الألوان..والبحر يجرني بجريرة السوء فيَّ على غير هدى اضبط بوصلتي.

..قاربي السريع هو ما لاذ بي من أزمة، اقتضبت تيه ترفي، ولكني لم أؤخذ على حين غرة غافلة عن كفن قد حكته لذاتي العميقة، التي

أفردت لها مصابيح الدجى وانتشلت اقباس من اطراد، ما تراءت لبشر سواي ولكنه ظن فيّ كان من توجسني بقالب من شمع، من سرق مفاتيح اليقظة وألقى بها بعيدا في غيابت الجب، وأنّى لي بالسيارة ليبعث فيها الحياة !

إني هاربة اليوم يتلاطمني الآذى، وما ارتفع بي الموج لتتخاطفني اغماضاته عن عشقي إياه لوهلة، وتعجزه موجة السخط لتقلعني من صخر لصخر، وما أنا الطود ولا بي الصواري، قاربي نحيل يا آلهة البحر وما لي بالمداد، ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا وأنا اليافعة غضة فاغفر لي سوءتي.

ألست يا بحر مطبب الجراح؟؟ ألست مسقط الشعراء ومهوى العاشقين؟ فغيض ماءك عن سرابيلي، واضمحل تُسيّرُ قاربي بطوق نجاة، واقلعي يا سمائي رحمة، وانفضي عني غمامة الجزع، واستبشري طفلتك عائدة إليك، فلا تبكي فلا بعد اليوم رواح ولا أماسي رمادية، دع فيض من شعاع يغلب على وجنتيك حمرة، ولتمشطي غدائرك بمشط من مرجان، دع الحب فيك يستيقظ

واجعليه عرابا لي، يوم أُحملُ على أذرع الريح تُطوِّقُني بريح المسك والعنبر.

ما هي إلا لحظات وأغادر إليك عروسا بلا عرس مجروحة، يتقاطرني الدم قانيا بلا جراح فيّ ولا سقام..

أعلم أنك ستذكرني لكني لن أمر بذكراك عابرة حقنة النسيان، وتعلم أني لن أتوقف عن حروف أربع أترنم مُقَدِسةً ذكراك.. محياك.. نور عينيك.. عشقنا..أتلوها وإن سرق الموت نبضي..أ.. ح..ب..ك.."

شاطىء كاليفورنيا ..آب.٢٠١٤

Dary dary look what I found its pirate bottle with .."..a map

بين الشاطئ ورماله تقافزت قدما الطفل الصغير، ذي العينين الزرقاوين الصغيرتين، المنغمستين بوجه طفح محمر مليء بالنمش، وقد تهدل شعره الأشقر على كتفين ملفوفين وجسد مكتنز، وجنتاه اللتان انغمست فيهما غمازات البحر تتموج بزرقتها الصافية، ينهب بقدميه الصغيرتين راكضا إلى حيث المظلة

البنفسجية، تؤوي جسد أبيه البرونزي مستلقيا على كرسيه الطويل، وهو يضع قبعة القش على وجهه ما يغطي جسده سوى سروال قصير، جسده الذي انغمس بقمحية الصيف، صدره الذي تتناثر عليه شعيرات سود على استحياء، رفع قبعته عن وجهه فتح عينيه السود الكحيلة سرعان ما امتدت يداه لتضع نظارات سوداء، وجنتاه ناهضتان لحية متناثرة على جنبات وجهه بعشوائية، أضفت عليه جمالا.. حاجباه الكثان، شفتان بنيتان تخفيان أسنان صفراء، شعر أسود قد خط البياض حفافيه، مارا بخصلات متناثرة على صدغيه وخطوط أوغرت الكثير من أسافينها عند العينين اللتين ترهلتا وغارتا حيث تؤويهما نظاراته السود، احتضن طفله الصغير..بلوعة وخوف شديدين..نطق بتمتمات متقطعة...

"What's up Joly?"

"Look dary what I found?"

"Let me see, it's a bottle."

No dary it's a pirate's bottle it contains a map "inside it."

"Oh, that’s real let me see then …"

وحاول أن يزيل قطعة الفلين التي رصت بقوة جعلتها تطفو بأسرارها، لم ينجح فكسر فوهتها وأخرج الورقة التي اختبأت في ظلالها، فتح الورقة وما أن سقطت عيناه عليها حتى أخذ نفسا عميقا مغمسا بحشرجة أصابته بجزع، وفاضت إلى عينيه دمعات ترقرت آذنة بحرق ما تناثر على وجهه، الذي امتقع حزنا وأسى.. أثار الفضول الصغير جولي، ونطق وقد امتلئ صوته بخوف مرتجف مغطس بدموع حارقة على أبيه.

"dary what happened?? please dary talk to me."

وناهض نفسه على التجلد أمام عبرات بريئة، أنطقت عيني طفله ابن السنين الثلاث، بلهفة امسك جولي، ضاغطا على كتفيه..

"Please Joly tell me where did you find it?"

"Come on dary, I will show you.."

وبعد بضع وثبات على الرمال الذهبية التي تناثرت حول أقدامهم المهرولة..

It's here between these small rocks in the north "side of the beach."

تمتم بوميض من كلمات:".. إذا هنا أرسيت ذكراك جوليان، وآثرت أن تموتي لئلا تبوحي بحب عتيق.. آه يا حبيبتي، لو تدرين كم افتقدك!! وشاح الليل يظلني بين حواشيه، وأنت تحلقين في ملكوت حريتك..ها أنا أجلس أقارب بين قلبينا القتيلين في نار تلظى، هاهي الرمال تلهبني ندما وقد تقطع قلبي أسفا على ذكراك، لقد غادرت إلى الموت وأنا أعلم ذلك لكني كنت أنانيا، ليتك سمحت لي بمرافقتك.. أنا نذل حبيبتي .."

وغاص بين كتفيه يغمره موج البحر بمدده وهو حاضن تلك القصاصة..ودموعه المالحه تغذت بأجاج البحر دفقا من لوعات..

على مقربة منه وقفت حسناء شقراء، يغطي شعرها الأشقر المتهدل بتموجات عذبة قد ذوبت فيها ذهب من نسيج الشمس، جسدها العاري إلا من بضع قصاصات تغطي مفاتن جسدها البرونزي بمئزر على الخاصرتين، لفته بيديها الساحرتين التفت إليها وغاص بعينيها الزرقاوين، تقبله بحضنة صدرها الممتلئ، قام متمهلا بمشيته كسفا من ركام..

everything will be okay darling don’t worry I'm "here."

وأمال جبله المتهدم إلى حضنها وهو ينصهر بدفئها، تلفحه الشمس بلهيبها وهو في مبترد طفله الصغير يحتضنهما..

...جلس إلى مكتبه في شقته المطلة على صفحة البحر، وأخذ يحدق في القصاصة، اقتحمت أستار سكونه رائحة القهوة، تحملها زوجته الحسناء بفستانها الوردي الشفيف وضعت فنجان القهوة وطبعت على وجنتيه قبلة ساخنة، جلست قبالته وأخذت ترتشف القهوة وهي تنثر ابتسامتها على محياها، رفع رأسه وطوحه إلى الوراء وأخذ زفرة طويلة، ثم أخذ بيديه المرتعشتين فنجانه.. رشف

رشفة طويلة وتناول سيجارته وأشعلها لتتطاير أفاع ملتوية في أجواء الحجرة الأرجوانية التي يتوسطها مكتب بسيط مغطى بقشرة البلوط، ومقاعد سوداء تتحولق حوله وقد توسد إلى ظلال مكتبة امتلأت أحشاؤها بالكتب، أخذ نفسا طويلا لمظ شفتيه و فتر عن ضحكة بائسة:" أتدرين ممن هذه الورقة؟؟"

هزت رأسها وكتفيها باستغراب..

قال بخنوع وعيناه محدقتان في سماء الحجرة:" إنها من جوليان.."

أمالت جسدها بخطفة وكأنما انتشلت حواسها من بئر عميقة، وبلكنة ثقيلة قالت:" جوليان صديقتك الصحفية؟؟!"

أومأ برأسه وأردف: "هي ذاتها، رسالة أمنتها موج البحر ليوصلها إلي وأنا في بيروت، وها أنا استلمها بعد فقدانها بثلاث سنين.." ضحك ضحكة عالية ما لبثت أن اختفت بحرقة، تناول سيجارته بين أصابعه وكأنما أخذها نفسا واحدا، ليزفر سحابة من دخان ضاعت في السراب

"tell me what she wrote in it??.."

"هل تريدين سماعها بالعربية أم بالانجليزية؟"

"مش مشكل حبيبي، أنا بدي أسمع أنا بعرف آخر القصة، لكن حابه اسمع من الأول..احكي شوقتني.."

وتبدأ الحكاية:

كانت البداية في مكتب صحيفتي الشرق بمبناها القديم في أحد أحياء بيروت، كنا أول طلعتنا خمس عشرة عاما لم تبهرني، كما هي الخمس سنوات التي انتقلت فيها جوليان للعمل لدي، فتاة غاية في الجمال جسدها المكتنز ساقاها الممتلئتان تنورتها القصيرة قميصها الحليبي يثير جنون الممتلئين شهوة لأنوثتها الغامرة، عنقها المكشوف فتحات قميصها الثلاث تبوح بأسرار موغرة في أصول الجمال، وجهها قطعة القمر بحمرة على الوجنتين، عيناها الخضراوين، شفتاها المكتنزتان شعرها الكستنائي، مشيتها التي طوحت كل من عرفها، لكنها كما كانت تقول:" أنا متحررة من قيود الجسد، لكني عاقلة في أولويات حياتي." فلم تكن لقمة سائغة بل مرة كالعلقم، أول تحقيق صحفي من جعلني أناضل لألمس روحها،

وهي تلوح الكون من حولي جمالا، ولجت إلى مكتبي الكئيب كنسمة عابرة، وأنا أطارد سحب الدخان من حولي، أوراقي المتناثرة حولي متكدسة، أدراجي الممتلئة بالملفات.. سماعة الهاتف التي لا تفارقني، كل ما فيّ مشغول لكني أمامها وهنٌ على وهن، أتكالب على نفسي بقناع الجمود..عيناي الغائرتين تحت عدسات نظارتي السوداء.. شاربيّ اللذين يغطيان شفتين بنيتين، الشعر الأجعد كلها مقومات ما تجذب أنثى ساحرة.

وضعت ملفا أخضر أمامي واقتربت بعطرها تطوحني كلي بعذوبة، لقد أعلنت رهبانيتي منذ أمد بعيد، وصرت عابدا ناسكا بين أوراقي في محراب النشر والتوزيع، مطاردة غيلان البؤس في كل مكان أخذت تفتح صفحاته وبصوتها العذب تراصت حروفها، ملف ساخن جدا تحقيق صحفي للوحتها الربانية صرت عاشقا، أتراني عشقت كليهما أم أني فاضلت أحداهما على الآخر؟؟ لكني أحببتها كلها بكل ما فيها..أنصت للحني ونسيت عذوبة نطقها وهي تجسد معاناتها

ضحكت وضحك معها قلبي، جاهز للنشر منقح..بقلم جوليان، وخرجت وأنا أوقع على نشره ومن هنا دخلنا عالم الشهرة، جريدة

الشرق أصبحت في منحى العالمية بفضل تحقيقاتها الجريئة...عندما حدث تدمير ال"EMPIRE STATE" تغيرت الدنيا وأضيفت قائمة الإرهاب الدولي التي طالت كل عربي ومسلم، ١١ سبتمبر ليس إرهابا على USA لكنه على العالم، تغير الخارطة بتنظيم القاعدة. كتبت: "تنظيم القاعدة بأفراده تمكن من تدمير رمزية أمريكية، وخلق إرهابا عالميا اقتيد إليه العربي والمسلم كضحية لمقصلة منتقم، ألسنا ضحايا في كوكبة القتل؟؟."

لتلك اللحظة كنت أجهل ولعها بي، ولكني تقاسمت الأيمان أني لا أطيق أن يهمس أحد باسمها سواي، بت أجدُّ في السهر لكي أتابع نشر موضوعاتها، أبهرتني قدرتها ومحاكاتها الواقع بصلادة..ومنذ ذلك الحين ما هدئ هاتفي، بعضهم اتهموني بالتحرر وجُعلت في مصاف لائحتهم السوداء في الاغتيالات، لم تعجب مواضيعنا العديد من السياسيين الذين تجاهلوها تماديا على سلم ما يسمى الحرية على اعتبار أننا أعداء تحرر المرأة من سلطة الرجل وضد حق المرأة في التعبير عن رأيها، وصنفت جريدتنا على القائمة السوداء المروجة لانتهاك حقوق الإنسان.

أذكر حينها عندما دخلت علي المكتب وفي صوتها حشرجة لم أفهمها، هي القوية التي أثارت غضبي قبل بضعة أيام عندما لمحتها تحادث زميلها بكل رومانسية، لكني اليوم شفوق ولعي بها جعلها ترتمي على صدري، وكأنما كتلة من لهب تحرقني بكل مفاصلي، أغمضت عيني ورحت أمسد على شعرها بفيض من حرقتي، رفعت رأسها المندس في صدري وكأنما خلعت معه قلبي من بين ضوالعه صوت روحها أسمعني نشيجا بغصة:" إني لا يهمني شيء ليقل العالم ما يريده لأُصنف كما يريدون لكني سأُسمع صوتي للعالمين،... لكن ما يؤلمني أن أمي تحتضر وهي على فراش الموت، وأنا ..أنا لا أطيق البعد عنك أعني عن الجريدة." وانتزعت جسدها من أحضاني الغارقة في الهيمان، وذرفت دموعها وهي مطأطئة الرأس، تقدمت منها وهمست: "وأنا لا أطيق البعد عنك."

السماء مكتظة بالغيم الأسود ودوامة من الريح تعصف بأغصان الشجر العاري، وما تبقى أي من أعشاش البلابل، لكن المدفأة الصغيرة التي كانت في مكتبي جعلت الكثير لي لأتأمله، الشارع السياسي يختنق والأزمات الاقتصادية التي تعاني منها المجتمعات،

أسفرت عن العديد من المشاكل الاجتماعية.. الاغتصاب، السرقة، العهر، بيوت الدعارة، بيع الأعضاء البشرية الأيدز وأنفلونزا الخنازير وأزمة المياه كلها بوابات جهنمية تقتل ما تبقى من أوكسجين قد خالطته جزيئات هائلة من ثاني أكسيد الكربون ، صفحات عديدة يمكن أن تدر الكثير من الأموال على الصحيفة، لكنها يا "رامز قدري" تحتاج طائلا من الأموال، وقلبا هصورا لا يهاب. وماذا بعد؟؟ نظمي والشيكات التي يتحفظ عليها، يهددني بين الحين والآخر بتقديمها إلى المحكمة وأعضاء الحزب الذين يناصرونني أعدادهم تتضاءل، ببساطة يتهمونني بإقامة علاقة مريبة مع مارونية.

لكنه الحب إلا يعرفونه؟؟ إلا يمتثلون لسلطانه؟؟ يعرفون بقرارة أنفسهم أنهم يكابرون، كل منا عنده نقيصة، إذا كان الحب أحدها فلا أعدم وجوده.

لكن يا رامز أنت مسلم ومن طائفة لا تقبل هكذا تدليس، وهل يمكن للمنطق أن يتغير؟؟

إنه دين السماء الذي اختص الله فيه نفسه بالرحمة، أليست الرحمة طابعا للحب؟؟

لما تمتد غرائبية البشر وشرورهم لتطال ذاتي صفحاتي المخبئة تحت نواقيس الهذيان؟؟!

إنه النزر الأخير المتبقي لي لأمضي به ..

كفى يا رامز كفى، أنت تهلك نفسك.

نعم، سأفعل ما أريد لدي قلمي ودفاتري، وسأقاتل حتى النهاية.

دوامة دواخلي تتوثب تلاعبني لعبة الكلمات والأحاجي..

..رامز بيك.. رامز بيك..

انتفض الجسد كاملا..وكأني العصفور المنتفض قد رفع عنه حكم الإعدام..

.. أنا.. أنا أعتذر عم عامر اعذرني..

.. ولو يا ابني يا رامز، أنا ما أنجبت الولد وأنت تعرف أنك بمثابة ابني، منذ أول يوم وضعت قدمك في الجريدة، ياه أيام جميلة!!

... تفضل القهوة الحلوة ربع ملعقة سكر، اعرف أنك لا تحب الحلاوة لكن الحياة حلوة بس تفهمها..

..هههه.. آه .. يا عم عامر تعال اقعد، نتذاكر الماضي، أريد أن اسمعه منك حكاياتك المعتقة بنفحاته تطربني، تجعلني أحن لسماء رحبة ليست كسمائي اليوم طروبا بالقنابل والألغام..

بتذكر يا رامز السيد أيوب الله يرحمه، ويعطيك طول العمر صاحب الصحيفة قد تراكمت عليه الديون..

تعيش عم عامر..

تعيش هني، كان صحفي مخملي يعني للطبقة الراقية ولم يكتب إلا الأخبار المغطسة بالشيكولاتة السويسرية، عمليات التهريب أصبحت خدمة للوطن والمواطن، تجارة البودرة والهيروين التي تمرر إلى البلاد، مجرد ادعاءات من أصحاب القلوب السوداء، وأما السهرات وبيوت الدعارة فكانت سياحة داخلية، يا خي وبقي على هذا المنوال حتى لم يبق على أحد ليشتري الصحيفة وما كان في اليد، بح طار(ونفخ على كفه الذي قد بسطه أمام فمه) والصحفيون طاروا وبقي لوحده حتى قبض عليه رجال الأمن، بتقدمة بلاغات

ضده من أصحاب القلوب السوداء، كما كان يسميهم، ظل يتصل ويتصل ولكن أقفلت في وجهه كل الطرق، المخجل أن ما حدث معه بالضبط يا ابني، كما حدث مع العملاء الملاعين الذين باعوا الوطن وأسراره بالليرات الخضراء ولما حقق اليهود كل شيء من اغتيالات، آه وروحوا الناس الشرفاء الله يرحمهم هيك (وضرب الكف بالكف) ودمروا كل شيء وهربوا نواحيهم، لكن اليهود عاملوهم مثل الكلاب، شو بدي احكيلك يا ابني عن الماضي، قد ما كان حلو كان مؤلم..

طيب عم عامر ما رأيك بزاوية أيام زمان في الصحيفة..

كثير منيح ابني رامز، أنت حربوق وبتعرف شغلك..

لكن أنت من سيكتبها..

أصابته المفاجأة وعاد بجسده البدين إلى الخلف، وقد تكور بطنه أمامه وأخذ يبرم شاربه الأبيض الكث، ويميل رأسه يمينا وشمالا وقد أطبق عليه الصمت.

فرقع بأصبعيه رامز أمام وجهه وقال: عم عامر ..أين ذهبت؟؟

يعني أنا بقدر أكتب؟؟!!

ولم لا..

لكن أنا كتابتي ضعيفة!!!

لا يهم ستتولى أمرك صحفية نشطة اسمها أسمهان..

الله على الطرب أسمهان وفريد الأطرش..

عم عامر.. أسمهان لا تعرف الغناء بل تعرف الكتابة، أريدك أن تركز في استحضار الماضي من أول ما خُلقت، يمكن أبعد من هيك يعني كل شيء تعرفه عن لبنان، عن بيروت عن الجنوب عن صيدا، عن كل مكان في لبنان.

وسهرات أم كلثوم ست الطرب على الإذاعة..؟؟

أكيد لا تنساها..

مشى رامز إلى باب مكتبه ببضع خطوات، وأطل برأسه باحثا عن أسمهان كتلة جسدية صغيرة، ترتدي نظارات طبية سميكة وتربط ذيل حصان، لكنها تتميز بالنباهة والذكاء جال بنظره الصالة

المكتظة بالمكاتب الخشبية الصغيرة، والضوء العويل يرتج أمام ناظريه أخذت ظلال الجنود والقذائف تطرق أذنيه..

ابقَ تحت السرير رامز.. لا تطل برأسك..

ووقع الانفجار وسقط رامز على الأرض وقد ارتطم رأسه بالباب، فشرخت نظارته ذات الإطار الأسود السميك وطارت عدة أقدام قبل أن تستقر عند قدمي جوليان، التي كانت تراقبه بنظراتها وهي تسير في الممر الطويل، عند آلة صنع القهوة والشاي، لم تقو على رؤيته يطوح نظراته بعيدا عنها، لكنها شعرت أن أمرا ما كان قد جعله يفقد السيطرة عندما رأت جسده يتهاوى، ألقت بكوب القهوة الساخن أرضا، وتطايرت لتتلقفه إلى حضنها لكن البلاط الأبيض كان أسرع منها، تناولت نظارته ودستها في جيب معطفها الجلدي الأرجواني وصبت طائل غضبها على ألم ساقها الذي ما كانت لتتخلص منه.

انقشعت الغيوم من السماء وأفواج من الطيور المهاجرة، أخذت جزءا كبيرا من صفحتها الرائقة وأشعة الشمس الذهبية مكسوة بالندى تململت بحذر تكسر حلكة حجرة المشفى، وقد ارتمى رامز

وقد تعصب رأسه بضماد طبي أبيض، على سرير اتخذ النافذة جارة يحاكي فيها أضواءها المشتعلة وفوانيس الليل، وها هو الصباح الندي يشرق على وجهه القمحي ولمعة خافتة دنت من شاربيه الرقيقين وقد توسدا شفتين اكتملت فيهما فحولة الرجولة، أخذت أناملها البيضاء كأملود السكر تداعب وجهه برقة، تتمعن بتفاصيله الكثير منها ما كانت لتراه، فقد اختبئ تحت عدستين سوداوين، لم يكن رامز ليخلعهما إلا عند النوم، عندما تطفئ الأنوار..

ماذا كان يخفي رامز؟؟ لقد عرفت الآن أنه كان يخفي الكثير..تكتمت في غيابت الجب، مررت أصابعها عند جفنه الذي ارتطم بحافة زمنية عتيقة، غيرت لونه بدا أكثر عتمة، وندبة عبرت من خلالها إبرة جراح منذ سنين خلت، ماذا كنت لتخفي عني أيضا رامز؟؟؟

أي ماضي يعذبك؟؟

ليتك تبوح كما البلابل على الأدواح، لكنك آثرت الصمت الحب البعيد ..أحنت جسدها لتلامس شفتاها الحمراوين المكتنزتين وتطبع

قبلة حارقة على خده، وقد اصطبغت بها بصيلات الشعر البيضاء وقد طالعها السواد على استحياء، مقتحمة وجهه الأمرد.

حرك دفئها جسده ليكتسي بحرارة، فتح عينيه غشاوة بيضاء قاربت بينه وبين الولوج إلى الماضي عندما أصابته شظية قنبلة، حطمت بيته بل ردمته وقتلت أمه وأباه وهو قد دفن بقبر الحياة مصابا بعينه، ذاته المشهد أمامه عندما كشف الطبيب الضماد عنها، كان قد أخفى بتقاسيم وجهه الكثير..

عينك سليمة.. لكن عليك أن تتأكد من قدرتك على الاستمرار بالإبصار..

كانت غشاوة بيضاء مجرد صفحة بيضاء، ليتها كانت الدنيا كذلك بلا حروب بلا قتل ولا تشريد أغمض عينيه ثانية كما فعل، كانت صرخته في الماضي لكنه لن يقوى عليها اليوم، أغلق عينيه ثانية جلست إلى قربه على السرير الأبيض بمعطفها الأرجواني، كوردة معشقة بالحياة أمسكت يديه بحنان وقربتهما من قلبها.

وقالت: افتح عينيك..

حاول جاهدا، ذاته الخوف من أن يفقد بصره ثانية، لكنه في الماضي قد حصّل هبة من طبيب فرنسي لمعالجته وعدد من أطفال حيهم في شقة بيتهم المطلة على الزقاق الضيق، الملاصق لمخيم الفلسطينيين، حيث كانوا يلعبون كرة القدم يركلونها بأقدامهم الصغيرة، تطرق ضحكاتهم الصمت المطبق قبل أن تهب العاصفة، الطيران الإسرائيلي يقصف نواحي بيروت، وبيت جدتي في الضيعة يحتبس أنفاسه الصامتة برهبانية، ولم تنه الميلشيات حتى ذلك الوقت لعبتها في حصاد الحرب الأهلية، سنوات مظلمة والمشهد اللبناني هو هو المليشيات اللبنانية والانتحاريين الفلسطينيين والقصف الإسرائيلي المبتور، كلها قنابل وصواريخ توقعني في شرك إلى الهذيان طفل الثانية عشرة هرم منذ نعومة أظفاره، وها أنا أقصف أوراق الخريف المتهاوية بين جدراني الحبيسة، المقفلة على ويلات وصراعات طائفية وحزبية على خارطة الوطن بمسمى شظايا إنسان، أتمها الطبيب الفرنسي بقدرة وإلهام وهبتهما له السماء، لتزرع لي قرنية جديدة من ضحايا الحرب، ولتبقى بصمة تجوب معي مستقبلي تشوه خلقي في البقايا المحطمة.

هل أفتح عينيّ الآن، وأعلم أن جوليان الحبيبة التي تسلم نفسي و تدنو إليها، على لقياها راغما سأجثو على ركبتي وأحبو، كاسرا كل القواعد والمواعظ لأسلم نفسي للعبة القدر.

وماذا ستظن بي؟؟؟ مسخ إنسان أخفيه بنظارة سوداء يتعرج الأفق بين انحناءاتها من أكون اليوم أمامها بلا نبض؟؟.

طبطبت على يديه وقربتهما من صدرها، وقالت: لا عليك أحلى ما فيك هو أنت، كما أنت. فتحتهما عنوة رغما عن أبجديات البشرية ما كنت امرؤ سوء وما اقترفت الخطايا، ولم تتعدى عدة أيام حتى تماثلت للشفاء والتأمت جراحاتي، رويدا رويدا توثقت علاقتنا أكثر فأكثر، بت لا أطيق فراقها.

عبرت قناديل الليل برعشات العويل والغربان تنعق على الأدواح العارية وقد هجرتها البلابل وحل الليل ببهيميته على الأرض المحترقة، ودويُّ القنابل قد أجج سعير البيوت العتيقة وقد تهادر ركامها لتسوى في الأرض، لملم السكون المطبق على الصحيفة في خريف ٢٠٠٨ وقد حمل أوزار الأطفال الذين وأدتهم القنابل الإسرائيلية في سني عمرهم الشقي، غزة تحت القصف كما كانت

بيروت تحت القصف كما كانت سينا والجولان في السبعينات والفلوجة في الألفية الثانية تحت القصف، حرب الاستنزاف وحرب الميليشيات وحرب التنازلات وحرب القهر، ثمنها بخس.. آلاف من القتلى تتمدد جثثهم جيفا لآكلات الجيف لتنهشها الضباع، وتتسابق إليها كل الهوام إلا البشر.

كانت أصواتهم منعدمة حولي لكني كنت موقنا أنني في الجنة مع الحور العين، كل ما حولي مغطى بالبياض لكني مازلت اشتم ريح أمي وخبز الطابون، وجدتي وأبي.. دفاتري وأقلامي رسوماتي القتيلة، دفنت وإياي كنت أرى الملائكة بأجنحتها من نور ترفرف حولي، تُسكن عليّ وحدتي حشري تحت الأنقاض، أنفاس من برد جعلت الملائكة تمسكني من أطرافي، وتحملني إلى الأعلى، لم أكن اعرف قبض الأرواح وما رأيت قبلا ملك الموت، أحاديثنا الطفولية كانت عن المرح عن سميرة الحلوة بنت الجيران، من يعشقها هاني ابن الأستاذ نبيل مدير مدرستنا البهاء الابتدائية، وعن لعبة القلل الزجاجية.

عندما كنت أُسمعهم شيئا من قصاصات الجرائد التي تقع بين يديّ مما تحزم به الخضراوات عندما كان أبي يأتي بها من عند الخضرجي أبي جميل، ثم يمسك المذياع البني الكبير وقد جعل كالبيت الخشبي، بلهفة وحرص يدير مقبضه باحثا عن إذاعة صوت العرب، ثم يستند إلى الأريكة الخضراء وقد أراح قدما على الأخرى، وأخذ يطوح برأسه مبعثرا النوتات الموسيقية من بين أنامله كقائد اوركسترا ينشد سيمفونية ل موتزارت، لكنه كان يلحن لحن الأخبار، دوما كان يردد:" أخبار من غير بلدك هي الأصدق وقت الحروب."

نعم، الأكثر شفافية لأنها تفرض حزاما ناسفا على الخيط الرفيع، الذي يقبع ذليلا بين المواطن والحكومات، خيط قد أصابه الترهل والعوز والجوع وعانى من التقشف وويلات التضخم والاحتكار، خيط انعدمت شفافيته ليحل العذاب، "استعدادات الحرب..يا طفلي الصغير المصريون سيقاتلون اليهود وسينتصرون، عبد الناصر هكذا يعد شعبه ونحن مع عبد الناصر.." ويسير في البيت الصغير في الحجرة المجذوبة الأطراف، وما يلبث الصياح يملئ البيت كنت

ابن الثلاث سنوات، ألهو مع لعبة المسدس مرتديا زي الجيش جسدا ضئيلا ينغمس بالأكمام الطويلة، بلونه الأخضر وقد تبعثر الأسود عليه بعشوائية، أتذكرها بغشاوة كما هي غشاوة الغازات المسيلة للدموع كما اليوم، وأمي تقبلني وتمسح ما علق بها من عروسة الزعتر.

بسمتها رقيقة وحمرة تعلو وجنتيها كنت أحبها أمي، كنت أشتهي ساعات التعلق بيدها صغيرا وأحلم بها بين يدي أراقصها عندما أصبح رجلا كأبي تماما، كأبي أريد أمي أن تعلق يدها بيدي ونسير فوق النجوم ونرسم أبقارا وضرعها تدر حليبا على الكون، ليسبح ببحر أبيض من نقاء كما كانت جدتي تقول:" لو رضع الناس الحليب لكانوا أتقياء."

السؤال الذي حيرني طيلة سنيّ عمري إلى أن أدركت يوما، أنها لا تقصد الحليب والرضاعة من أثداء النساء، لكنها كما كان الأستاذ نبيه أستاذ اللغة العربية يشير لنا بعصاه القصيرة على السبورة قائلا:" إنه المجاز يا أولاد عندما تريد أن توضح صورة، لكنك لسبب ما لا تريد ذكرها بغض النظر عن السبب، لكن تبقى الرسالة

التي تريد إرسالها، فتقول: النهار عندي قهوة وسيجارة ووطني هو ذاك.." ونحن نتضاحك..ليثور صائحا :" بس يا ولد السجائر ممنوعة، أنا أقول لو فرضنا.. فالوطن هو الشيء الذي تعشقه.. تحبه تثور به تقتحم الجنون من أجله فهو مجاز، إن الوطن هو النهار ومعشق بالقهوة والسيجارة."

نعم، لنرسم أبقارا ولترضع من ضرعها البشرية حليبا صادقا، يطهرهم من النجاسة لكنهم قتلوا الأبقار في (تشارل نوبل) في روسيا بالإشعاع النووي، وامتنع العالم أجمع عن الاستيراد وعندما وشى لي صديقي أبو مزين الجزار:" أن لحوم العجول قد غزت الأسواق." لم أصدق حينها لكنه اقسم :"أنها تتعرض لدرجات حرارة عالية ثم تفرم ونبيعها ببساطة للمواطن المسكين."

وأقسم أغلظ الأيمان:" أن الحليب الذي يرضعه صغارنا اصطناعيا هو حليب نووي." كنت بدايتها شابا في مقتبل العمر في السلك الصحفي، صحفي مبتدء مغمور سيثير فضيحة على مستوى الوطن، وتسللت إلى مصنع كبير من مصانع الألبان ورأيت حينذاك ما لم تره عيناي ولكني بعدها بقيت أسبوعا عالقا على إحدى

الطرقات الجبلية البعيدة وأنا فاقد الوعي، لم يمنعِ هذا من أن أكتب أول تهديد لي بالقتل، لكن حياتي لن تساوي الكثير أمام حياة الملايين من البؤساء من الأطفال الصغار.. وطردت من الجريدة وبقيت في الأزقة باحثا عن شربة ماء بلا مأوى..

كما قال لي أبي وأنا صغير:" شرد الفلسطينيون من أرضهم، بل وذبحوا في دير ياسين وغاصت الطرقات بالباحثين عن طوق نجاة، كما البحر غدت الصحراء، وما عاد هناك من رطب ولا يابس كله قد حرق، وأووا إلى مخيمات ينتظرون صفح الآلهة من البشر."

رنت كلمة الآلهة في أذنيّ لأول مرة عندما تهجأت حب الآلهة، وهل هناك آلهة؟؟ قال لي جوني ابن الجيران عند الحافة الحادة في أول الطريق الإسفلتي، الذي رُصّت البيوت على جنباته.

قلت حينئذ وكأني من خلقت الكون: نعم، هناك آلهة.

قال مبهوتا وقد فغر عينيه على اتساعهما :آلهة أعطني واحدا.

قلت: أنا آلهة..

لا أدري حينها ما قلت، كنت أعلم أني قد أخطئت وأني سأطرد من رفقة أطفال الحي، لكني ما كنت أدري أن أبي سيضربني بالفلقة، لقد ربط قدماي النحيلتين إلى خشبة ووثقهما بحبل طويل، كانت أمي تحتفظ فيه لنشل الماء من بئر الحي عندما تنضب المياه من الأواني والبرميل الأزرق المركون إلى جنب باب البيت الحديدي الأسود، وقد وضعت عليه علبة نحاسية ملأتها بالتراب من حديقة أم بهاء الدين الكبيرة الخضراء، وبيتها من الطوب المبزر ويعتليه القرميد الأحمر، كانت أمي تحب الذهاب إليها كل خميس لمساعدتها في عمل مئونة البيت من معقود ومخللات، كانت أمي تتقن عمل الأشياء، عندما كانت تساعد الخالة أم بهاء الدين كنت أنا أعبث بأروقة البيت من الخارج، وقد أوصدت الأبواب الكبيرة أمامي، ذات المقابض النحاسية ذات الرؤوس المدببة وأنا أنبش الخزائن المغلقة، تعثرت بحذاء قد رصف جلده اللامع كحجارة الشطرنج ذي شرائط سوداء، صرت أتابع نقل نظراتي الحائرة بينه وبين حذائي ذي الجلد المهترء وشرائطه المقطعة، لكنه كان يحملني في الطرقات العابرة لبيروت والجنوب ليتوقف عند المخيمات

الفلسطينية التي تحاكي الجهة الجنوبية لبيروت، حيث تقبع صفوف البيوتات اللبنانية.

من براءة الطفولة اختلت به طاووسا في بهو البيت الكبير، الذي تميز عن بيوتات بيروت مزهوا به وأنا أشنكل أصابعي بصدريتي الخضراء، التي تستر جسدي وسروالي الكاروهات بمكعبات حمراء وخضراء الذي يتماشي مع قميصي الأحمر، كانت أمي تعشق الألوان كم تمنت أن ترسم لوحات ولوحات لكنها كانت ترسم لوحات في البيت من كنس وتنظيف وتزيين الأثاث البسيط وتجميل الأكلات.

لم تكن الفلقة حينها لابن السابعة قوية كهذه الفلقة التي أدمت القدمين، كان الثمن هناك إعادة الحذاء والاعتذار الشديد من أم بهاء الدين، تلك السيدة التي دوما كنت أرى شعرها المذهب الطويل وعيناها السوداوين، كغابات سوداء طافت في بحر من قشطة وبشرتها المخملية، لقد كانت وريثة الباشوية وتصرفت بأخلاق، قدمت لي الحذاء كهدية وهي تبتسم وتربت على ظهر أمي بعطف، عندما حضنتني شعرت لأول مرة بنغزة تسري في جسدي، جسد آخر غير جسد أمي له عطر خاص واكتناز جميل.

تبعثرت الكلمات فوق السطور غزة تعيش بعزلة عن العالم أطفال العراق في محرقة الأمريكي الصراع الطائفي على أرضه والقاعدة تسود خارطة الطريق، كما كانت لبنان لسنوات طويلة لعبة خشبية تحركها الأيادي في لعبة الزمن المر، مخرجين كثر وكثرت الحبكات، السيناريو السوري يزاحم السيناريو الطائفي، وآخر يفرض الوجود الفرنسي، وغيره يناهض الوجود الأمريكي، القوى المتصارعة من الجبهة الفلسطينية والمليشيات اللبنانية ثم السيناريو الإسرائيلي وتصفية الحسابات، لكن الصورة ما عادت في فلسطين ولبنان والعراق ولكنها امتدت على الخارطة الجغرافية الإسلامية لتغادر أفغانستان شريدة بقتلاها، حرب دينية وتشريد الأقليات وزعزعة التعاهد الديني مع المسيحيين.

جوليان مارونية وأنا مسلم اقتران عصيب بين ديني المحبة والسلام الإسلام والمسيحية، لكنه حب الرب لذات العشق...

"بيض الحمائم حسبهن أني أردد سجعهن"، وهن الهادلات على أوراق الربيع والندى يتصفد على جبين الورود النضرة، بتول التفتحات وتغاريد العصافير وصلت إلى أجواء وأرجع لها الصدى

إلا في جوقة الحزن، التي أطبقت على صحيفة الشرق فقد نعت عددا من صحفيها وهم يحملون شارة الكلمة المسموعة:" الحق في أن تعلم الحقيقة ببساطة"، قُتل بالقصف الأمريكي لمدينة الرمادي عندما تلطخ الفرات ودجلة ببحر الدم، كان يحمل قطعا من الخبز لتسد أفواه الجياع، إن الصحفي هو الإنسان أينما كان رسول السلام، لكن الرغيف الأسمر تخضب بدمه أحمر قاني ذوب بالدم للأيتام، لتأكله الأفواه الجائعة في فسيح الجنان، قنبلة طائشة ترصد إرهابيي النظام السابق، ثم بعد ذلك لجنة تقصي الحقائق تبين "أنه ملجأ للأيتام قطعت به سبل النجاة."

أعترف أني ولدت من رحم المعاناة وفي قبب المساكين، ما كان لدي الكثير من النقود فقد ترهلت الودائع المالية، كثرت الصحف وتعددت وسائل انتشار الأخبار وتغير ذوق الناس، ما عادت هناك أهمية للكلمات المطبوعة، ما دام تناقلها إلكترونيا بشيفرات من نبضات الأشلاء المبتورة، لكنه العالم من حولنا من ثار بزوبعة لا تنتهي.

تحت الضوء العويل تمددت إلى جانبي دفء جسدها أذاب قسوة الزمن وحمصني كحبة قهوة خضراء نضرة تمج ربيعا لا ينتهي، لأول مرة استشعر الحب عن قرب بدواخل بركاني الخامد مللت جرجرة الحروب، وصور الآدميين الجثث التي تتبارز عليها النسور والجوارح، اختناق فيّ منعني من استنشاق الأوكسجين منذ سنين، تعودت أن أنفث الدخان ليتلوى على مقصلة وجودي ثم اجتره إلى نشوة الحياة، لكنها تلك الليلة تكومت بجانبي شعلة من حنان لأول مرة ما نظرت لمستقبلي فهو ورائي بكل صعاليكه، هاتف قد اصخب سحابة الحب الشتوية إلى قطرات من دموع..

" أنت وضعت نفسك في طريق الموت مع هال...إلي عندك.."

"أنا ما بسمحلك.."

" زمنك انتهى رامز بيك.."

لم تكن رياحي بأفضل من تلك التي الصفراء التي عصفت بالعالم، ومنعتني من اصطحاب جوليان إلى المطار لتطمئن على صحة أمها في أمريكا، لكنها قد تصاب ب h١n١. وماذا بعد؟؟ حلقت الطائرة

مع أسراب القطا وقد حملت معها نطفا من عالم جنون الأنفلونزا في القارات السمراء والبيضاء.

مشى الهوينى يلملم حاجياته أوراق انهزامه.. فتح درج مكتبه درج الزمن العتيق، حيث الذكريات والكنز الدفين تحت الضوء العويل، وأخرج أوراقه العتيقة من درج مكتبه ملف الزمن القديم، تناول ملفا أخضر أخذ يمسح الأغبرة المتراكمة، قربه لوجهه اشتمه تأرجحت المقل في مآقيها وعزف الوداع الأخير ينزُّ في صدره، نحيب خافت على الذكريات الضائعة، بيت الجدة في الجنوب هو الجوكر الذي سينقذه من السجن.. الديون المتراكمة.. رواتب الموظفين.. تعويضات أسر الشهداء..رهن البنك سيُصَفِدُ الشياطين من الجن والإنس لينوء بجسده إلى البعيد، حيث لا أهل ولا جدران لا ملح ..لا تراب ولا حب بلا أسقف ولا تعميد وبلا روح فروحه غادرت مع جوليان، حين كان الملح يحرق وجنتيه ويأخذ معه بواقيه..

رن هاتفه الخلوي كان قد اشتراه لتحدثه جوليان، من بلاد العم سام رج ومعه أرتج قلبه أرتدت دموعه متجمدة إلى بواطن

أسرارها، صوتها المرتجف أوقع من بين يديه ماضيه وإرثه.. أوراقه تناثرت.." أنا هربانه.. لا تقاطعني حبيبي حصلت على معلومات..عن.. عن الحرب الجرثومية تبدلت للصدفة حقائبنا.. أنا وعالمة كانت في ذات الرحلة..لا تتصل بي سأحاول أن أمرر المعلومات..لكني واثقة أني سأقتل..لا تبحث عني..أحبك."

عصفت رياح صفراء مشبعة بحمى المرض، لتحصد الأرواح من كل بواعث الحياة ..الفساد..الدمار ..الربيع العربي الذي انتهى إلى حيث لا رجعة بلا انتصارات بل وابل من حمم بركانية تقتل بعبثية كيفما تشاء، وريحي مازال بها فتيل من نبوءة الطود العظيم وسفينة نوح، لا بد أن أنقذ الحب الوحيد وعين أملي تنوس ضريرة بلا قدد ولا أقباس، سأتدرج قمم السراب وأرمي نفسي من هناك، من أعلى قمة بشرية لأنال اللقاء الأخير.

صفيت أعمالي وهربت نعم، هربت إلى حيث لا يعرفني أحد، لتاريخ في داخلي أحبسه..أقلم أظفاره كلما شممت ريح البيت العتيق وعظامه تهدم حجرا حجرا بلا منطق لبقاء التاريخ، حطت قدماي أول خطوات الطريق الطويل شعرت كما أرمسترونج وسطح القمر

عالم مجنون..يدور حولي، الكل يسير ويسير يقطع الدروب وأنا أمتثل لقانون الزمن حيث تضيع نقطة الصفر، وتصغر الزوايا وتدقق الخطوط وينعدم الوزن.

شعرت بذاتي تضمحل تدور وتدور وتضاءلت إلى حيث لا أرى، وسقطت إلى حيث لا يعرفني أحد، حين أفقت في المشفى كنت إلى جانبي هيري ولم تكن جوليان فقد اختفت حتى هذا اليوم من ذاكرتي.

رجل خائن بنظرك..عامودي الفقري يتزلزل بفقراته حيث تصغر قامتي، أمام إخلاصك وخيانتي لحافظ أسراري لقلبي المنهزم، قدمت لي كل شيء الصدر والحب الدفء والحنان..العمل الوجود والكيان، وكأنك كنت تواعدينني بأحلامي طوال ماض طويل بغابات الأشجان.

أهو قدري هيري أن أفوز بالحب..أمي..جدتي..جوليان و..أنت هيري..؟؟؟ حبي الباقي الذي لن يزول تحت وابل المطر..

سأتقدم إليك أنحني فقبليني ورج قارورة الزمن لتبدأ حياتي من جديد... رجوع للفهرس

عصفت رياح صفراء مشبعة
بحمى المرض، لتحصد الأرواح
من كل بواعث الحياة
..الفساد..الدمار ..الربيع العربي
الذي انتهى إلى حيث لا رجعة بلا
انتصارات بل وابل من حمم
بركانية تقتل بعبثية كيفما تشاء،
وريحي مازال بها فتيل من نبوءة
الطود العظيم وسفينة نوح، لا بد
أن أنقذ الحب الوحيد وعين أملي
تتوس ضريرة بلا قدد ولا أقباس،
سأتدرج قمم السراب وأرمي نفسي
من هناك، من أعلى قمة بشرية
لأنال اللقاء الأخير.